قصة قصيرة:

الصّاحب

حسن مشرب الفرشيشي

كل الذين حولي يشغلهم الورق الذي بين أيديهم وفوق الطاولات.. الدنيا كلها في مربع صغير ورشفة شاي أو قهوة.. كل منهم يمسكها بطرف ويُلهي نفسه بالاستحواذ عليها.. كنت الوحيد الذي يرقب زخات المطر وهي تنزل بقوة وتغسل كل شيء.. تركت الكتاب فجأة وطفقت أنقل عيني بين النافذة والباب.. أحياناً يخيّل إليّ أن مطر النافذة ليس كمطر الباب فأبتسم وأعيد ما تصوّرت ثم أركز النظر من جديد.. تعتريني صور كثيرة في أحوال الدنيا والناس وسرعان ما أعود مرّة أخرى إلى النافذة والباب لأقول لنفسي: «النافذة لي والباب لهؤلاء، النافذة أصغر من الباب لكنها أجمل ولها خصوصيتها، لو شبّ حريق هنا لخرجوا هم من الباب وخرجت أنا من النافذة، لو فعلوا أيّ شيء في الدنيا أفعل أنا العكس، أنا محكوم عليّ، وهم لا شغل لهم غير الجلوس واللعب بالورق».

منذ زمن وأنا وحدي أجلس هنا كل يوم، أطلب قهوة، أقرأ كتاباً أو مجلة قديمة أقتل بها الوقت.. العيون من حولي ترمقني بطرف خفي، وجوه كالضفادع، لم تتغير، أصوات قِرديّة تتعالى بين الفينة والأخرى: «قهوة يا شافْ».. منذ اليوم الأسود لم أتعرف على أحد. لا يكلمني أحد. عزائي الوحيد أن مشكلتي ليست هيّنة، تستوجب الحزن وأحياناً الانغلاق على النفس.. غالباً ما أشعر أني في حاجة إلى صديق بمواصفات خاصة، وهذا أيضاً ليس هيّناً.. لا بدّ أن أتحمّل وحدي تبعات التحوّل الذي طرأ عليّ.. هل نفعت الصداقات بالجامعة يوم حلّت المصيبة؟ خافوا من الإضراب.. جبناء...

هذا الصباح جلست وحدي كالعادة.. لا أنتظر شيئاً.. أتملّى مطر النافذة ومطر الباب.. الخداع البصري لا ينفك يثير إعْجابي لكنه يزيدني جهامة على الدنيا والناس.. الطاولات والكراسي تزدحم من أجل أوراق لا معنى لها وأنا وحدي حزين متبرّم في ركن بارد.. كم مرّة جربت الكتابة لكني لم أفلح.. من قال إني افتقدت في تلك الموهبة القديمة؟ كان المعلم يعجب كثيراً بفروضي في الانشاء ويقرؤها على رملائي.. كنت أفرح كثيراً لذلك.. آه لو أوفّق في الكتابة.. أتنفس على الأقل.. ماذا سيفعلون أكثر مما فعلوه.. الكتابة لمجرد التسلية ممنوعة أيضاً..! مصابون بالهوس، كل الأوراق يحسبُونها مناشير..!

لم أدر كيف خطر لي أن أُخفي الكتاب في جيبي وأخلُص منه، العيون هنا كثيرة ولا داعي لجلب المتاعب.. ما أتعس الخوف حين يكبل الانسان... فجأة وقف شخص أمام وجهي، لا أعرف متى وكيف دخل.. استأذن بالجلوس، أذنت له، جلس على يميني ووضع قهوتي بيننا وسكت.. كان الوحيد ـ تقريباً ـ الذي لم يعرض عليّ لعب الورق هذا الصباح.. كيف حصل هذا!؟.. نظرت الى النافذة ثم الى الباب.. وازنْتُ وقارنت.. أعدت النظر من جديد بين صاحبي والناس.. نفسي تحدثني بأن النافذة لم تعد لي وحدي.. أحسست أن شخصاً آخر سيشاركني أمطارها وسماءها وهمومها وكل شيء فيها.. نظرت إلى صاحبي بطرف خفيّ فاذا وجهه غارق بين دفتي كتاب.. قويت الحاسة السادسة في داخلي.. قال قلبي هذا هو الصاحب.. لا بد أنه غريب، كيف يقرأ كتاباً في مقهى من الدرجة الرابعة؟ أنا تعودت على هذا.. مضطر.. لا وجود لنوادي ونشاطات مستقلة عن الحكومة والا كنت أخفيت وجهي على الأقل.. الدنيا كلها موصدة في وجهي.. مقاهي الدرجة الرابعة هي حلبة التعارف الوحيدة. أنت وحظّك. إما أبيض وإما أسود. الأفضل أن تبقى وحدك ولا تفشي أسرارك لمخلوق.. الوحدة قاتلة أيضاً..

لعليّ أنا وهذا الرجل وجهان بقلب واحد.. ربما كلانا يفكر في الشيء نفسه.. لعلّه الآن يقول هذا هو الصّاحب.. هو لم يجلس بجانبي هكذا صدفة.. بعض

الكراسي كانت شاغرة عندما اختار هذا المكان.

المهمّ الآن، من سيتكلّم؟. القراءة تشغله عن العالم بأسره، لا بد أنه طيّب بسبب الكتب.. جاء النادل فجأة.. أخذ الكأس الفارغة من أمامي.. وقفتُ لأدفع الحساب قال النادل وهو يمسح الطاولة: «قهوتك خالصة» قلت: كيف، من دفعها! قال: صاحبك. قلت: أيّ صاحب؟ والتفت عن يميني فاذا به يبتسم ويقول: «المرّة القادمة عندك يا سيّ كمال»

ـ آسف.. لا مؤاخذة من فضلك. ربما كنت أعرفك.. كثيراً ما أقع في مثل هذه المواقف.

ـ معك حق ـ كلنا نقع في النسيان ـ لكنك لا تعرفني فعلاً.

ـ لم أفهم!

ـ هذا الأمر طبيعي جداً. أحياناً يعرف الواحد منّا أشياء كثيرة عن غيره دون علم منه، وأحياناً يرى الواحد منّا ويسمع ويتقصّى أخبار الغير، وربّما أحبّ أيضاً لمجرّد أشياء تعجبه في شخص ما.

ـ أنت خفيف الدم ولطيف. هكذا بسرعة جعلتَ مني بطلاً.. ماذا أقول لك؟ شكراً على كل حال!

ـ تتواضع دائماً كعهدي بك، إن شئت أذكّرك بأشياء كثيرة ولا أظنك تنساها أبداً.

ـ تفضل، قلها ماذا تنتظر؟

ـ خطاباتك الممزوجة بالنكات والتلميحات في مدرج الجامعة طيلة ثلاث سنوات، تنسى نقاشاتك الحادّة مع الشيوعيين ودفاعك عن حقوق الطلبة أمام مجلس الكلية؟! تَذْكُر ذلك الطالب عندما أراد عرقلة الاضراب وأصرّ على دخول المحاضرات.. تنسى أنك وقفت له أمام الباب وحاولت إقناعه بوجوب مناصرة الانتفاضة الفلسطينية!؟ لقد حاول ضربك، لكن الزملاء سحقوه بسرعة.. هذا قليل من كثير وإن شئت زدتك، لقد كنت حديث الخاص والعامّ في الأوساط الطلابية أتنكر هذه النجوميّة على نفسك يا بطل!؟

ـ إذن كنتَ طالباً هناك، في أيّ قسم؟

ـ عربيّة، تخرجت السنة الماضية وعيّنوني هنا، وأنت، لم أرك بالمعهد لعلّك تدرّس بمكان آخر؟

ـ غريب سؤالك هذا، مثلك لا تفوته هذه الأمور، كيف فاتتك هذه المعلومة الخطيرة أيّها المعجب؟

ـ ايه معلومة، لا بدّ أنك تنكّت أو تلمّح كالعادة، حاذر، لسنا في الجامعة الآن..

ـ بل أنتم الذين لم تفعلوا شيئاً من أجلنا، تخلّيتم عنا بسهولة

ـ أنت من المطرودين يا كمال!

ـ . . . .

ـ ماذا تفعل اذن؟!

ـ كما ترى.

ـ لماذا لا تسافر؟

ـ منعوني.

ـ ماذا تنوي أن تفعل إذن؟

ـ خائف، لا أحب أن أتهوّر وأظلم نفسي مرّة أخرى.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا لا أبداً، لا شيء

ـ ما لك ارتبكت فجأة؟!

ـ لا داعي أرجوك.. من السهل أن نتحدث لكن من الصعب إيجاد الحل.. ثم.. هذا الموضوع يؤلب عليّ المواجع كلما أثرته.. أريد أن أهدأ وأريح أعصابي على الأقل، يكفيني ما أنا فيه.

ـ معك حق نغيّر الموضوع إذا كان يزعجك.. تذكرت، منذ حين رأيت في يدك كتاباً. لا بدّ أنك تسليّ نفسك بالقراءة. فكرة جيدة.. أنا أيضاً أفعل مثلك كما ترى. القلق يلتهم كل الناس، هذه الرواية أنهيتها الآن. هل تسمح لي بالاطلاع على كتابك، لعلك انتهيت من قراءته أنت الآخر؟

لست أدري كيف بدأت أشكّ في الرجل.. طريقته هذه، ليست غريبة عليّ.. الشرطة بالجامعة كانوا يندسّون بأساليب عجيبة. صحيح أننا أمسكنا البعض منهم. لكننا كثيراً ما أخطأنا في حقّ الكثير من الزوّار وحتى الزملاء غير المعروفين.. لم أجد بدّاً من تسليمه الكتاب، لكني اعتذرت أن أبادله إياه بدعوى أني لا أزال في بدايته.. أخذ الكتاب بين يديه، قلبه وراح يتصفّحه ويدقّق فيه.. كنت متضايقاً، شديد الرغبة في التملّص منه.. بين الحين والآخر أوشك أن أعتذر لكني أتماسك.. قلت لنفسي: «الوجه والهيأة لا يبعثان على الريبة. من يدري المظاهر خدّاعة أيضاً!».

مهما يكن الأمر، جوارحي انتكست من طريقة كلامه، لو بقي صامتاً كان أحسن، ليس هكذا يكون الصاحب.. للأسف، النافذة بأمطارها وسمائها وأوهامها وكل شيء فيها، بقيت لي وحدي.. خاب ظني فيه. صار بسرعة تافهاً كغيره.. الناس في العادة لا يدفعون الحساب مرتين، حضرته عزمني على مشروب جديد! ببجاحة بدأ بطرح أسئلة لا تهمّه ويلحّ على الاجابة.. أكاد لا أصدق، صار الناس مشكوكاً في ذمتهم هذه الأيام، لو جاءت الشرطة في اليوم التالي ودخلو البيت وفتشوه وأخذوا كل كتبي وأوراقي وحققوا معي، لن تكون هناك مفاجأة كبيرة. لقد تعودت على ذلك ،ألفته..